

متى يبلغ اليتيم أشده؟

قال: (حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) ماذا يحصل؟ تدفع له ماله، يعني هنا كلام محبوب، حتى يبلغ أشده فادفعوا له ماله كما ورد تفصيل ذلك في سورة النساء:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْتُبُوا
وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (6)

(سورة النساء)

(حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) هذه القوة البدنية، (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا) خبرة في السوق والعمل التجاري (فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)، لما نزلت الآيات في سورة النساء، شق ذلك على الناس الذين عندهم أيتام، حتى من شدة تنفيذهم لأمر الله عزلوا مال اليتيم عن مالهم، حتى عزلوا طعامه عن طعامهم، فصاروا يدعون له طعامه فلا يأكله فيفسد لكن لا يقربوه أبداً، فيؤمن الله تعالى أنه يجوز أن تخلص مالك مع ماله إذا كان في ذلك إصلاح لماله، فقال تعالى: (وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) إذا كنت تشغل وقتك في تمييز ماله، فكل من ماله بالمعروف، يعني بالحد الأدنى الذي يُقيم حياتك وكأنك تأخذ أجرك، قال العلماء بالمعروف تأخذ أجراً مثل الأقل، يعني إذا كان بالسوق إنسان يريد أن يُقَرَّ هذا المال كم يأخذ؟ تأخذ المثل، أقل شيء ممكن.

(حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) يبلغ أشده بالقوة البدنية (حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ)، والقوة الفكرية العملية، خبرة الاثنان معاً بلغ أشده بهما، ذهب الفقهاء لُحَدِّدُوا السن قال البعض: ثمانى عشر سنة، قال البعض: بعد سن البلوغ، قال البعض: خمس وعشرون سنة، الحقيقة أن القرآن لم يُحدِّد السنة لأنَّ الناس يختلفون، قد تجد شاب من الثمانية عشر سنة ممكن أن تدفع له ماله ويستثمره أحسن منك، عنده خبرة، فتدفعه، وممكن شاب صار عمره ثمانية عشر سنة وهو طالب ثانوية عامة، ودخل الجامعة وهو ما عنده خبرة في السوق، فتنتظر حتى يبلغ الخامسة وعشرين سنة وهكذا، فالأمر (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى) يعني امتحنهم، قل له: انظر، لأنه إذا أعطيت ماله وبلغ النكاح، ولم يتزوج بعد وأعطيت ماله، بمجرد البلوغ قد ينفقه على شهواته، ولا يُبقي شيئاً لنفسه منه، فترك الأمر لك يا ولي اليتيم، أو للقاضي، أو للحكم، أو لمن يرتضيه أهل اليتيم حتى يتبين أن هذا الشخص بلغ مبلغ الرجولة، وأصبح قادراً على إدارة ماله بنفسه، وهذا يختلف باختلاف البيئات والظروف والأشخاص (حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ).

الوصية السابعة الوفاء بالكيل والميزان والعدل فيهما:

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) الوصية السابعة من الوصايا العشر (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) الوفاء أن تعطى الشيء كاملاً غير منقوص، الكيل للأشياء المكيلة المُعتمِدة على الحبوب مثلاً، الحليب، بعض السوائل، والميزان للأشياء التي تعتمد على الكثافة، إذا في كل وزن، ويوجد المقياس الذي يعتمد على المتر، قماش مثلاً.

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) أي بالعدل، والحاجة بحسبها يكون ميزانها، يعني إذا ذهبت لتشتري كيلو عدس، فالميزان المعروف يوزن به، واليوم يوجد ميزان الكتروني أدق، وسابقاً كان ميزان عادي له كفتان، إذا ذهبت لتشتري خروف، فكانوا يضعونه على ما يُسمونه القبان، يعني هذا إذا كيلين زيادة أو كيليين نقصان، يعني الخروف أكل زيادة أو شرب قبل بيوم، فيزيد أو ينقص بين الستين كيلو والاثنان والستين كيلو فهذا فيه تسامح، إلا أن يكون هناك شيء مقصود من قبل الراعي، كان يُسمن العجل قبل ذبحه بما يشربه، هذا طبعاً لا يجوز لأنه أصبح فيه نية عش، فالميزان بحسب الموزون، إذا كان تريد أن توزن ذهب، فتضع الميزان الدقيق جداً، وتضع حوله زجاج حتى لا يؤثر الهواء به لأنَّ الوزن بالغرامات، فكل موزون يوزن بحسب قيمته ونفاسته، فقال: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) لكن رغم ذلك مع اختلاف الموازين، القسط العدل التام، العدل المُطلق لله وحده، فقال: (لَا تَكْلَفُ تَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) يعني استنفذ وسعك في العدل، في الكيل والميزان، لكن أحياناً أجزاء من الغرام بالذهب ممكن أن لا تكون صحيحة لسبب أو لآخر، أجزاء من الغرام، بالكيلو ممكن غرامان، الوزن مائة كيلو ممكن كيلو، (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) تخفيفاً على الناس قال: (لَا تَكْلَفُ تَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)، لكن هذا الوسع ينبغي أن تستنفذ الجهد فيه، وليس لإنسان إذا كان الكيل له، فيضع المكيل ويضع فوقه الكيل ويمسكه بيده حتى لا يسقط، وإذا كان بالعكس لا بهتم، بل تضعه كاملاً وبشكل واضح، وتعني بقوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2)

(سورة المطففين)

إذا كان له يقول له أريده كاملاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَّا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)

(سورة المطففين)

انظر كيف جاء اليوم العظيم مع التطفيف في حقوق العباد، التطفيف في حقوق العباد زيادة أو نقصاً، (لَا تَكْلَفُ تَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)، لا تعني أبداً التهاون، وإنما تعني فتح باب الرحمة في الأمور التي لا يملكها الإنسان، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قضية الزواج، تعدد الزوجات قال:

{ اللهم هذا قَسَمِي فيما أمِلُكَ، فلا تَلْمُنِي فيما تَمِلُكَ ولا أَمِلُكَ - يعني القلب - . }

(أخرجه أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد)

أنا لا أستطيع أن أعول بين زوجتين، بحيث أكرِّ لكل واحدةٍ منهما الحُبَّ نفسه، وأواجه كل واحدةٍ منهما بالكلام الطيِّب نفسه، هذا فوق طاقتي، لأنَّ الإنسان يميل قليلاً، لكن ما يستطيعه أن يبيت عند هذه ليلةٍ وعند هذه ليلةٍ، ما يستطيعه أن يُفِقَ مائة هنا ومائة هنا، ما يستطيعه أن يُهدي هذه ويُهدي هذه وإن كان يُجِئها أقل من الزوجة الثانية، ما يستطيعه أن يدخل البيت في الحالتين باسمًا، لا يدخل هذا باسمًا وذاك مُكشَّرًا، قال: **(هذا قَسَمِي فيما أمِلُكَ، فلا تَلْمُنِي فيما تَمِلُكَ ولا أَمِلُكَ)** فالعدل المُطلق عند البشر مستحيل لا يوجد عدل، العدل المُطلق عند خالق البشر جلَّ جلاله، أمَّا نحن فنحرص على العدل ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، **(لا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)**.

الوصية الثامنة العدل في القول:

الوصية الثامنة **(وَإِذَا فُلْتُمْ فَأَعْدِلُوا وَوَلَوْ كَانَ دَا فُرَيْبًا)** العدل في القول، ولو كان الذي تتكلم الكلام بحقه، يعني تحكُّم عليه لا له ولو كان قريباً منك، قرابةً نسبيةً أو صداقةً أو شريكاً هذه القرابة، **(وَوَلَوْ كَانَ دَا فُرَيْبًا)** وأوصانا النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث:

{ أوصاني خليلي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ: أوصاني بآلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي وَأَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي وَأوصاني بِحَبِّ

المساكينِ والدُّنُوِّ منهم وأوصاني أَنْ أُصِلَ رَجْمِي وَإِنْ أَدْبَرْتُ وَأوصاني أَلَّا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً وَأوصاني أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا

وأوصاني أَنْ أَكْتَبِرَ مِنْ قَوْلِي: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كُنْزٌ مِنَ كُنُوزِ الْجَنَّةِ } {

(أخرجه ابن حبان في صحيحه)

(وَإِذَا فُلْتُمْ فَأَعْدِلُوا وَوَلَوْ كَانَ دَا فُرَيْبًا).

الوصية التاسعة الوفاء بعهد الإيمان بالله والطاعة له:

الوصية التاسعة **(وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا)** وأعظم العهود مع الله عهد الإيمان به، وعهد الطاعة له، ثم ما يكون بينك وبين الله من عهود، تُعاهده على الصلاة، تُعاهده على الاستقامة على أمر الله، ثم ما يكون بينك وبين عباد الله من العهود.

(ذَلِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ بِتَعْلَمُونَ)، ذلكم أي ما سبق، وجاء هنا تذكرون لأنَّ هذه الأمور كانت تعرفها العرب وتعرف أنها، بل كان بعض العرب يتباهون بصنيعها، فيعتنون بالآتيام، العرب عندهم عناية بالنيام، كان عند كثيرٍ منهم وفاء بالكيل والميزان، كان العربي يقول كلمة الحق ولو على نفسه، كان كثيرٌ من العرب يوفون بالعهود، وإن كان ليس العهد الإيمان والتوحيد الذي نريده، ولكن بشكل عام الوفاء بالعهد، فجاء **(لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)**، يعني هذه الأمور تفهمونها، تحتاجون إلى تذكُّرها وتصحيح مسارها، أمَّا الخمسة الأولى فحتاج إلى العقل فقط، لأنكم لا تفعلونها.

الوصية العاشرة تقوى الله باتباع سبيله:

وأما الوصية العاشرة فجاءت بآيةٍ مُنفردة لتجمع ما سبق قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

(سورة الأنعام)

جاءت بالتقوى، لأنَّ التقوى أعظم الأمر، وهذا ختام الوصايا، وهي الوصية الجامعة لما سبق، **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)** قال بعض المفسرين: هنا يوجد لا المحذوفة، يعني ولأنَّ هذا صراطي مستقيمًا، فاتبعوه ولا تُتبعوا السُّبُلَ، وقال بعضهم بل هي تنمة لما قبلها **(فَلْ تَعَالُوا أُنزِلَ مَا هُوَ حَرِّمٌ عَلَيْكُمْ)** من هذا الذي أتوه **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)**، والمعنيان صحيحان، **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)**، كما في كُتُب الحديث:

{ خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا، وَخَطَّ خَطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ

مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ }

فجاءت السبيل مُفردة لبيان أنّ الحقَّ واحدٌ لا يتعدد، ولو تعددت طرق الوصول إليه لكنه واحد، وهو كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، فليس هناك حقان، ولذلك قالوا: " الحرب بين حقيين لا تكون " لأنَّ الحقَّ واحد لا يتعدد، " وبين حقي وباطلي لا تطول " لأنَّ الله تعالى مع الحقِّ فينصره، " وبين باطلين لا تنتهي " لأنَّ الأمر متروكٌ إلى العُدَّة والعتاد، وكل طرفٍ يقوى فيعيد الكثرة على الأول وهكذا.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ، السُّبُلَ جمع والسبيل مُفرد، (وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) هذه هي الوصايا العشر التي قال ابن عباس رضي الله عنهما فيها: " إنه لم يأت شيءٌ من الكتب نسخها " يعني هذه جاءت في كل الكتب السماوية ولم تُنسخ، يعني هذه الوصايا لا تقبل النسخ، يعني لا يكون الأمر لا تقربوا مال البتيم، ثم يأتى اقربوا مال البتيم، هذه أوامر ثابتة في كل الشرائع، وقال: " هي من أم الكتاب "، وقال كعب الأخبار يوم أسلم قال: " هي في التوراة قرأتها في النوراة "، يعني جاءت في كل الكتب السماوية هذه الوصايا العشر، فمن استكملها كما جاء عن ابن عباس دخل الجنة، وأجرها يجمع ما لم يرد فيها، يعني كل شيء في صراط الله مُستقيم، الصراط هو الطريق الواسع، (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

من تمام نعمة الله على عباده أنه أتى موسى الكتاب:

ثم يقول المولى جلَّ جلاله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154)

(سورة الأنعام)

هذه التَّمُّ في الأصل تُفيد الترتيب، ترتيب الحدث، يعني تقول جاء سامر ثم أحمد، يعني دخل سامر وبعد عشر دقائق الترتيب على التراخي دخل أحمد، سامر فأحمد يعني للترتيب على التعقيب، سامر وفورا بعده أحمد، هذا ترتيب أحداث، فهنا (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) موسى أوتِيَ الكتاب قبل محمد صلى الله عليه وسلم، هنا ليس الترتيب للأحداث، وإنما الترتيب للإخبار، كأن يكون هناك حدثان، واحد جرى السبت والآخر الأحد، فأخبرتك بالحدث الذي جرى الأحد، ثم أخبرتك بالحدث الذي جرى السبت، فأنا إخباري لك هذا ترتيبه، لكن الحدث ليس هذا ترتيبه، ثم تأتي لترتيب الأحداث، وتأتي لترتيب الإخبار بالأحداث، فهنا الترتيب إخباري وليس لترتيب الأحداث، (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا) تمام النعمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حُزِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِعَیْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَبِقَةُ وَالْمُؤَفُّودَةُ وَالْمُنْتَرَبَةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُخِيَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَشْتَقِسُوا بِالْأَرْلَامِ ذَلِكَ فَبِئْسَ الَّذِي كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُمْ وَاحْسِنُوا التَّوَمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِئْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (3)

(سورة المائدة)

فمن تمام نعمة الله على عباده أنه أتى موسى الكتاب، أي التوراة هنا، الكتاب إذا أُطلقت يعني القرآن الكريم، لكن إذا قُبِدت بموسى فهي التوراة، يعيسى فهي الإنجيل. (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا) هنا لطيفة من اللطائف، أنّ هذه الوصايا العشر كما ذكرت لكم وردت في التوراة، كما قال كعب الأخبار، فجاء ذكر موسى عقب الوصايا العشر. (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ) يعني على المُحسنين، من تمام نعمة الله تعالى على المُحسنين المؤمنين به، لأنَّ الكتاب ينزل فيكون فيه شفاء للمؤمنين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)

(سورة الإسراء)

فهو نعمة للمؤمنين به.

القرآن الكريم تمام النعمة والهداية وهو منهج كامل:

(تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ) يعني لكل شيء يكون فيه سعادة الناس في أمر دنياهم وأخراهم وليس كل شيء بمعنى أنه لو بحثت في التوراة عن علم الفلك لوجدته، ولا في القرآن كما يتوهم البعض، أن القرآن فيه تفصيل كل شيء، ليس المقصود كل شيء بمعنى أنه أريد أن أبحث عن علوم الفيزياء، هناك إشارات علمية في القرآن الكريم ذكرها المولى جلّ جلاله، إشارات إعجازية، لكن القرآن الكريم هو تمام النعمة والهداية وتفصيل كل شيء، يُقَرِّبُنَا مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ يُبْعِدُنَا عَنِ النَّارِ، قال صلى الله عليه وسلم:

{ ما تركت من شيء يقرّبكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، ولا تركت من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به }
(الألباني إسناده صحيح)

فالقرآن بهذا المعنى يُفَصِّلُ كل شيء، والتوراة فضّلت كل شيء، فمنهج الله كامل.

(وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهِمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ) هُدى، يهديهم إلى طريق الرشاد، ورحمة يملئ قلوبهم سعادةً وسكينةً وَحُبًّا، (لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ) فالقرآن يُذَكِّرُكُ بِالْبِعْثِ وَالْوَقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى.

القرآن الكريم مبارك كثر خيره:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155)

(سورة الأنعام)

وهذا يعني القرآن الكريم، (مُبَارَكٌ) ما معنى مبارك؟ كثر خيره، هو كريم تزيده تدبيراً فيزيدك عطاءً، تزيده قراءةً فيزيدك سكينَةً، ومُبَارَكٌ بمعنى أن خيره عميم، لا يخرق على كثرة الرد، كلما أردت شيئاً وجدت بُعَيْتَكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مُبَارَكٌ، كثر خيره، (فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) اتبعوا القرآن واتقوا الله، لعلكم، أي رجاء أن يرحمكم الله تعالى بهذا القرآن الكريم.

نزل القرآن ليقطع الحُجَّةَ بأنه أنزل على الذين من قبلنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156)

(سورة الأنعام)

(أَنْ تَقُولُوا) أي أنزل هذا الكتاب ليقطع عذرکم وُحْجَتِكُمْ، لئلا تقولوا (أَنْ تَقُولُوا) يعني لئلا تقولوا (إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا) طائفتين كبيرتين وهما اليهود والنصارى، فأنزل الله عليكم الكتاب لئلا يقول قائل منكم نحن قومٌ لسنا أهل كتاب، نحن قومٌ أميون لم يُنَزَّلْ عَلَيْنَا كِتَابٌ، الآن القرآن يدخل بأعماق النفس، النفس عندما تريد أن تترك الحق وأن تُعْرِضَ عَنْهُ تتخذ أَعْدَارًا، من أَعْدَارِهَا أَنْ يَقُولَ قَائِلُ الْكِتَابِ أَنْزَلَ عَلَيَّ مَنْ كَانَ قَبْلِنَا، أَمَا نَحْنُ لَسْنَا أَصْحَابَ كِتَابٍ، هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، نَحْنُ لَسْنَا أَصْحَابَ كِتَابٍ، فَقَالَ تَعَالَى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) هذا منهجك بين يديك، مثل طفل يقول لوالده: أنت لم تشتري لي حاسوب، لو اشتريت لي حاسوباً كنت درست، أخي أحضرت له حاسب فدرس ونجح، أَمَا أَنَا لَمْ تَشْتَرِ لِي، فَقَالَ لَهُ خُذْ هَذَا حَاسِبًا، ادْرُسْ وَانْجَحْ.

(أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ) عن دراسة كُتُبِ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ الَّتِي قَبْلِنَا كُنَّا غَافِلِينَ، لم نقرأ كُتُبَهُمْ.

القرآن الكريم أعظم الكتب وأشرفها:

أو تقولوا العذر الثاني:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ
وَصَدَفَ عَنْهَا سَتَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157)

(سورة الأنعام)

هذا عُذْر ثاني يصطنعه الإنسان، عندما يُقصر يقول لك: أنا لو كان معي مال لكنت بنيت مسجداً أكبر من الذي بناه هو، هكذا الإنسان يُحب أن يُجادل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54)

(سورة الكهف)

تقول له مثلاً أنت لماذا لا تقوم الليل؟ يقول لك أنا لو مثله ليس لدي عمل في الصباح باكراً لكنت صليبت، يعني يضع عُذراً لتقصيره دائماً، فيقول تعالى هنا ليقطع العُذر على العرب، قال: (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)، جاءكم، أرسل الله إليكم القرآن الكريم، بل هو أعظم الكتب وأشرفها، وجاء مُهيمناً على ما قبله، وناسخاً لكل ما سبق، فأنتم الآن أصحاب الكتاب، هم أهل الكتاب وأنتم اليوم من أهل الله، أهل القرآن وخاصته.
(فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ) بعد البيئات، يعني لا يوجد من أظلم، هذا استفهام إقرارى تقريرى، بمعنى لا يوجد أظلم ممن كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ، البيئات واضحة، القرآن بين يدينا، هُدًى ورحمة وبيان وتفصيل لكل شيء.

التهديد والوعيد لمن انصرف عن آيات الله وصرف الناس عنها:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) صدَف عنها يعني أَعْرَضَ عنها، انصرف عنها، أو صرف غيره عنها، يعني نحن عندنا الأفعال في اللغة العربية إتما أن تكون لازمة أو مُتعدية، اللازم يكتفي بفاعله، بمرفوعه، يعني لو قلت جليسي زيد، مفعول به لا يوجد، ممكن جار ومجرور على الكرسي، على الطاولة، لكن المعنى انتهى، جلس زيد، لكن لو قلت ضرب زيد، ماذا ضرب؟ الحائط، أخاه، صديقه؟ فُضِرْب مُتَعَدٍ ينتظر مفعولاً به.

الآن صدَف، تأتي صدَف عن الذكر يعني أَعْرَضَ عنه، وتأتي صدَف غيره عن الذكر، يعني منع غيره من الذكر، فصدَف تأتي لازمة ومُتعدية، فجاء القرآن بهذا الفعل بحيث يحمل المعنيين معاً (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) يعني صرف عنها الناس، أو أَعْرَضَ هو عنها، إتما أَعْرَضَ أو جعل الناس يُعرضون، (وَصَدَفَ عَنْهَا).

(سَتَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَن آيَاتِنَا) أي يُعرضون عن آياتنا، أو يجعلوا الناس يُعرض عن آياتنا (سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ) هذه الباء السبب، (سَتَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ) بسبب أنهم كانوا ينصرفون عن آياتنا، أو يصرفون الناس عن آياتنا، فهاتان الآيتان الأخيرتان، تُبينان عُذرين من أَعذار الناس، وتقطع العُذرين معاً، فليس هناك عُذْر أن يقول قائل: الكتاب أنزل على غيرنا ونحن لا يعيننا الأمر، ولا من عُذْر أن يقول: لو أنه أنزل علينا لَكُنَّا أَهْدَى، لأن القرآن جاء فقطع هذه الأَعذار، فيعد ذلك من يصرف عن آيات الله سيكون له سوء العذاب، والحمد لله رب العالمين.